المحاضرة الخامسة

اسم استاذ المادة : عادل رشيد حسين **name professor subject : Adel Rashid Hussein**

اسم المادة : الفكر الجغرافي **Subject name : Geographical thought**

اسم المحاضرة : الفكر الجغرافي في الحضارة الصينية

Presentation neme : Geographical thought in Chinese civilization

الفكر الجغرافي في الحضارة الصينية

من المرجع كثيراً أن الحضارة الصينية او حضارة الشرق الأقصى من الحضارات الأصلية التي نشأت من الأطوار البدائية في العصر الحجري الحديث في الصين نفسها ، ولا يستبعد انها تاثرت بعض الشيء بحضارات الشرق الأدنى ، ومهما كان الحال فانها بلغت طور نضجها في وادي النهر الأصفر الأسفل منذ منتصف الألف الثاني ق. م لقد عرفت الصين الزراعة منذ أواخر العصر الحجري الحديث او المتأخر حيث عرفت زراعة الحبوب ولا سيما الرز ، وتدجين الحيوان كالخنزير والبقر، كما عرفت حضارة الصين فن التعدين فاستخرجوا البرنز واستخدموا دولاب الخزف والكتابة الصورية واستعملت العربات ، كما انهم استخدموا الحرير في صناعة الملابس ، في حين اعتمدت حضارة الشرق الأدنى على استخدام القطن والعنب في صناعة النسيج .

هذا التوجه الحضاري القائم على اساس استخدام الزراعة والتي تقوم على اساس معرفة البيئة ومتطلبات الأرض ، كان العامل وراء الاهتمام المبكر للفكر الجغرافي والخرائط .

والطبيعة الجغرافية للصين كان لها الأثر وراء ذلك الاهتمام ، فالصين في موقعها الجغرافي تحيط بها مساحات عظيمة من المرتفعات من ناحية اليابس ، كما أن البحر يحيط بها على هيئة قوس عظيم ، اضافة إلى وجود ظاهرة الانهار العظمى حيث تخترقها ثلاثة انهار كبرى تنبع من الهضبات الداخلية ، وتجري نحو البحر ابعدها شمالا هو نهر « هوانج هو » وهو يجري في اكثر اجزاء الهضبة انخفاضا من جهة الشمال.

اما نهر « يانجتسي » و « سيكيانج » فانهما ينبعان من هضبة التبت العظيمة الارتفاع .

اضافة إلى الظواهر الجغرافية فان الصين تتمثل فيها بيئات مناخية متباينة بين الشمال والجنوب والغرب ففي الوقت الذي يسود فيه المناخ الموسمي في الأطراف الجنوبية نجد الاطراف الشمالية الشرقية يسود فيها مناخ يخالف ما يسود الأجزاء الغربية.

هذه العوامل البيئية دعت سكان الصين القدماء إلى معرفة المؤشرات البيئية والعمل على تذليل صعوباتها، خاصة وان الطابع العام لحضارة الصين طابع زراعي يعتمد على التفاعل مع الظواهر البيئية .

ومن الممكن ابراز أهم الجوانب للفكر الجغرافي الصيني ، فالجوانب الفلكية شملت على اساطيرهم التي حفل بها تراثهم القومي ذلك ان اساطيرهم تضمنت اشارات إلى بيضة العالم ..وكذلك انفصال السموات والارض بعد ان كانتا رتقا ، كما أشارت الأساطير ايضا إلى البحر المحيط بما فات الأرض ، وكانوا يخيلون الأرض اقرب إلى الشكل المربع منها إلى القرص المستدير .

اما في مجال الأفق الجغرافي ، ففي مجال اليابس تركزت في آسيا ، حيث قام رحالة صينيون بجولات واسعة النطاق ، زاروا خلالها الكثير من الأقطار الاسيوية وخاصة تلك الأقطار المحيطة بالصين .

ومن اوائل الرحالة الصينيون الذين حاولوا الوصول إلى الأقطار المجاورة (شانج كين) الذي وصل إلى فرغانة بعد أن وقع في الأسر لمدة عشر سنوات ، عاد بعد ذلك إلى الصين عن طريق التبت عام ١٢٨ ق.م

وقدم تقارير مهمة ساعدت على فتح طرق الحرير التي تمر في « جوبي ». ومن الرحالة الصينيين المشهورين (هسوان تساني) وهو مغامر بوذي وجد تناقضا في كتب البوذية المقدسة فاراد الاتصال بالغرب لكي يستوضح الحكماء لفهم بعض التعاليم .

بدأ رحلته عام ٦٢٩ حيث عبر صحراء (جوبي) ثم جبال تيان شأن فكافقند فسمرقند ، ثم واصل سفره حتى اجتاز نهر جيحون ثم واصل سفره إلى بلخ ، وبعد ذلك عاد ، اتجه شرقا فعبر المناطق المرتفعة ثم اجتاز ممر خيبر الى قندهار .

وفي مجال البحر كانت هنالك رحلات بحرية قام بها البحارة الصينيون حتى وصلوا إلى نهر الفرات .

إن علاقة الصين بالغرب عن طريق البحر انما نشات اساسا بفضل شجاعة الملاحين العرب الذين هم كانوا ذوي خبرة عظيمة بركوب البحر ودراية بالمسالك البحرية اللاحقة في المحيط الهندي وما يتصل به من بحار ، وان اقدم اشارة إلى قيام السفن الصينية برحلات بحرية انما وردت فيما كتبه المسعودي من انه في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي كانت سفن من الهند والصين ترى بصفة دائمة في نهر الفرات عند الحيرة ، وفضلا عن ذلك فان الحوليات الصينية التي يرجع تاريخها إلى القرنين السابع والثامن الميلاد بين تصف خط الرحلة من كانتون إلى الفرات .

وفي مجال رسم الخارطة فان الحضارة الصينية ساهمت في رسم الخارطة وتميزت الخرائط الصينية بنشأتها المستقلة الا ان تطورها كان بسيط بسبب عزلة الصين وعدم اطلاعها على خرائط الحضارات الأخرى . ويعزى سبب اهتمام الصينيين برسم الخارطة إلى طبيعة الحياة الاقتصادية . فحياتهم تعتمد على الزراعة اعتمادا كلية الأمر الذي تطلب ايجاد وسائل مسح لتحديد مساحة الأرض الزراعية وتقسيمها ومد شبكات مياه الري .

ويمكن اعتبار الخارطة التي أوردها بالتفصيل المؤرخ الصيني سوماشين في كتاباته هي اقدم الخرائط والتي رسمت عام ٢٢٧ . ق . م ومع ذلك فان اعظم الخرائط الصينية القديمة في الخريطة التي وصفها بي هسيو .

الفكر الجغرافي العربي قبل الاسلام

الباحث في تاريخ العرب وحياتهم قبل الاسلام يجد صعوبات كثيرة في الألمام بحقيقة الوضع الذي كانت عليه الأمة العربية قبل الاسلام ، لان العرب في ذلك العهد لم يدونوا تاريخهم في كتب وصلت الينا لاسيما من كان منهم من سكان البادية انما كانوا يتناقلون ذلك شفاها عن طريق الرواية والشعر ولكن الباحث الراغب في كشف الحقائق يجد الكثير من الحقائق عن حياة العرب من الآثار التي تركوها خارج نطاق تسجيل احداث التاريخ.

والدارس للآثار العربية التي تمثل مرحلة ما قبل الاسلام يجد الكثير اذا ما قام بتحليل تلك الآثار .

فالشعر الذي كان يمثل التاريخ التسجيل احداثهم اليومية ، اجتماعية كانت ام اقتصادية ام سياسية ، غني باخبار تلك المرحلة خاصة وان الشعر العربي في هذه المرحلة قد وصل إلى قمته من حيث صياغة الكلام وقوة التعبير وهذا ما نجده في جميع اشعار العرب قبل الاسلام . .

ويأتي في مقدمة شعرهم ما تركوه لنا في شعر المعلقات التي تمثل نخبة من قصائد اختارها العرب من شعر فحولهم وذهبوها على الحرير وعلقوها بأستار الكعبة تشريعا لها وتعظيما لمقامها واعترافا بمكانة الفاضها وحسن سبك معانيها حتي اصبحت العرب تترنم بها في نواديها وتفتخر بها في حاضرها و باد بها .

اضافة إلى ما تركوه من نثر وقول مأثور وامثال واحاديث تشير إلى المرحلة المتقدمة التي وصلوا اليها في مجال الأدب واللغة ..

وفي مجال الحياة السياسية فقد توصل العرب إلى نظم سياسية ثابتة تتوفر فيها مقومات الدول الحديثة من حيث السيادة والادارة والتنظيم. واحسن ما نشير اليه دولة سبأ ودولة حمير .

وقد اشادت الكتب الدينية والتاريخية القديمة إلى هذه الدول والى الدور الحضاري والاقتصادي المتقدم الذي وصلت اليه ، فالدولة السبئية وحاضرتها مدينة مأرب كانت مركزا للتجارة بين الهند والحبشة والشام والعراق .

وكانت تعتمد على تجارة البحر ، ولكن عندما اصبح طريق البحر غير مامون تحولت التجارة الى البر فكانت السلع تأتي من الهند والحبشة إلى شواطي جزيرة العرب فينقلها السبئيون برا إلى مصر والشام والعراق وكانت القوافل تسير من سواحل الجزيرة إلى مأرب وتتجه شمالا إلى مكة ومنها إلى البتراء ثم إلى غزة على شاطيء البحر المتوسط وكانت من نتيجة ذلك أن زادت ارباح الدولة السبئية وعظم شأنها فحفروا الترع وبنوا السدود وانشأوا القصور .

ومن المآثر التي أقامتها الدولة السبئية سد مأرب ودراسة سد مأرب بحد ذاته تعطي للباحث مصادر متعددة منها يستنتج قوة وسيطرة الدولة ، وتقدم الفكر الهندسي عند العرب وتطور الانتاج الزراعي ومعرفة جغرافية الاحوال البيئية وطبيعة انحدار الأرض وانواع التربة ومقدار كميات المياه المتجمعة في الوديان ، وسد مأرب ليس هو السد الوحيد الذي اقيم في شبه الجزيرة العربية فهنالك اعداد كبيرة من السدود يصل تعدادها إلى ثمانين سبا .

من دراسة الأدب العربي والشعر خاصة ومن تحليل الآثار التي تعود لهذه المرحلة ، ومن مطالعة الكتب التي تناولت تاريخ هذه المرحلة من حياة الأمة العربية يمكن القول أن الأمة العربية في هذه المرحلة لم تكن أمة جاهلة ، كما تمثلها فكرة اعداء الأمة العربية والتي صورت لنا آثار هذه الأمة ممثلة في المعارك والقتال المستمر لا بسط الأمور بل كانت بعكس ذلك امة ذات حضارة وادب وسياسة وتجارة واقتصاد ثابت ، ولو كانت عكس ذلك لاصبحت لقمة سهلة امام اعدائها

وفي مجال الفكر الجغرافي العربي لهذه المرحلة يمكن الاشارة إلى حقائق جغرافية تدل على فكر جغرافي متطور:

١) معرفة بيئة الانسان المحيطة به :

امتاز الفكر الجغرافي العربي لهذه المرحلة بسعة معرفة الانسان لبيئته فالعربي في شبه الجزيرة العربية يشمل بسعة أفقه جميع أطراف الجزيرة العربية ويصف تلك الأطراف ويقارن ما بينها ويستيل شعابها وأوديتها وانهارها.

فطرفة بن العبد صاحب المعلقة الثانية والذي عاش في البحرين اتسع افقه حتى شمل العراق وكل الجزيرة العربية .

واتلع نهاض اذا صعدت به

كسكان يوصي بدجلة تصعد

وهنا لا بد من الاشارة من أن الأدب العربي في هذه المرحلة انفرد في هذا المجال من بين آداب العالم ، اذ كما هو معروف فان القالب الأساسي للقصيدة في الشعر العربي . ان اولها ينفرد عادة لذكر المحبوب ودياره ووصفها والذي يعرف عادة بالنسيب ، وكثيرا ما ورد فيه ذكر لاكثر من موضع او موضعين جغرافيين يمكن في اغلب الأحوال تحديد موقعها.

٢) الاهتمام بمعرفة الانواء الجوية :

اهم الظروف الطبيعية التي تجابه العربي في جزيرته قساوة المناخ، فمناخ جزيرة العرب تسوده الطبيعة الصحراوية اذا ما استثنينا الزاوية الجنوبية الغربية المتمثلة في بلاد اليمن.

ونتيجة ذلك وجه سكان شبه الجزيرة اهتمامهم منذ أقدم العصور نحو معرفة الانواء الجوية . مواسم هبوب الرياح ، مواسم سقوط الأمطار، بدايات الفصول ونهاياتها ، ووحدوا زمن كل منها.

حتى انعكس ذلك في اد بهم وشعرهم . فلا تخلوا قصائدهم من ذكر الرياح والامطار والغيوم والعواصف وتجمع المياه ، قال الشاعر الأعشق في معلقته

كان مشيتها من بيت جارتها و فر السحابة لا ريث ولا عجل

وهنا نشير الى ظاهرة مهمة عرفها العرب منذ عصور متقدمة ، فقد أمكنهم التنبؤ بحالة الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة لخبرة طويلة الأمد بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة او ما يسمى بالغروب الكوني للمنازل القمرية .

وكان العرب يعرفون ذلك باسم النوء (الجمع انواء) وكان من نتيجة ذلك أن تجمع لدى العرب معلومات مختلفة عن الانواء ضاغوها بصورة سجع ادبي منها :

(اذا طلعت الجوزاء توقدت العزاء وكنست الظباء وعرفت العلياء وطاب الخباء)

٣) التوزيع الجغرافي للاماكن :

جاء في الفكر الجغرافي العربي في هذه المرحلة التأكيد على توزيع الاماكن الجنوبية توزيعة يقوم على التحديد الثابت الملتزم، وشمل ذلك التوزيع الجغرافي جوانب بشرية وطبيعية ، فذكرت القبائل ومناطق سكناها والجبال والسهول والوديان والنبات الطبيعي ، واين يكثر واين يقل وربطوا بين العوامل المؤثرة بعضها في البعض الآخر .

٤) معرفة مصادر المياه :

نتيجة الطبيعة المناخ الذي يسود جزيرة العرب ، والذي امتاز بالجفاف والتقلب والتذبذب من سنة لاخرى فقد ظهرت الحاجة إلى معرفة مصادر المياه الثابتة او العمل على خزنها من سنة لأخرى . وكان من نتيجة ذلك أن برزت في الفكر الجغرافي العربي في هذه المرحلة ظاهرة التحكم في مصادر المياه ، فكان أن أنشئت السدود على الوديان حتى بلغ عدد تلك السدود اكثر من ٨٠ سبأ وفي مقدمتها مدرضا مأرب في اليمن والذي يمثل انجازه معرفة هندسية وطوبغرافية ومناخية وزراعية.

٥) الاهتمام بالجغرافية الفلكية :

كان للترحال العربي الدائم والذي فرضته بيئتهم ، الأثر في شحذ هممهم مبكرا المراقبة التغيرات التي تطرأ على القبة السماوية ، وقد عرفوا الاهتداء بالنجوم ووقت طلوعها ومغيبها، حتى استطاعوا توقيت ساعات الليل . وفي

مقدمة الكواكب التي اهتموا بمراقبتها القمر لانهم يأنسون القمر ويجلسون فيه للسمر ويهديهم السبل في سرى الليل والسفر ويزيل عنهم وحشة الظلام . وهم في مراقبتهم لمسيرة التعز لاحظوا مبكرا علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة على التوالي ، وحددوا منيار القمر وجعلوها ثمانية وعشرين منزلا أطلقوا عليها اسم منازل القمر وأعطى لكل منهم اسم عربي خالص .

وقبل الانتهاء من تلخيص الفصل الخاص بالفكر الجغرافي العربي قبل الاسلام لا بد من الإشارة إلى حقيقة ثابتة من أن العرب في هذه المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور الاسلام كانوا على درجة عالية من التحضر اذا ما قورنوا ببقية مناطق العالم. فالحياة السياسية المستقرة الناضجة والتي وصلت إلى مرحلة تأسيس الدولة (السبئية والمعينية والحميرية) تدل على نضوج فكري سياسي في وقت كان يسود معظم مناطق العالم التخلف والهمجية ، وفي مجال الثقافة والادب فان أدب وشعر هذه المرحلة يأتي في مقدمة الأدب العالمي وفي مجال الحياة الاقتصادية ، كانت التجارة وطرقها المنتظمة والزراعة وسدودها القائمة تمثل طفرة تاريخية . كل ذلك يدل على أن الحياة الفكرية لهذه المرحلة كانت على درجة عالية من التقدم النسبي العالمي المقارن بمرحلتها .